حضارة الإسلام واثرها فى الحضارة الحديثة *

بقلم الدكتور محمد عبد الله دراز

ليس بالمرء حاجة إلى أن يكون مؤرخاً واسع الاطلاع ، ملماً بدقائق الحوادث ، لكي يعرف أن نمو الإسلام وانتشاره ، ثم ثباته واستقراره حيثما حل ونزل ، كان حدثاً فذاً ، منقطع النظير فى تاريخ البشرية ، بل كان معجزة من معجزاته.

وليس بالمرء حاجة إلى أن يكون فيلسوفاً عميق الفكرة ، بعيد المقدمات ، لكى يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة أن الإسلام لابد أن يكون قد حوى من عناصر الحق والخير والجمال كل ما تتطلبه الفطر السليمة على اختلاف مشاربها وأساليبها فى الحياة، وأن الحضارات التى نشأت فى ظله فاحتضنها وصانها ، أو التى اقتبسها مما حوله فنماها وأضاف إليها ، ووسمها بطابعه الخاص ، كانت لابد محققة لكل ماتطمح إليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد.

بدأ الإسلام شعاعة من النور السماوى ، هبطت على قلب رجل فرد ، فى عالم كله ظلمات بعضها فوق بعض : ضلالات وأوهام فى العقائد ، انحراف وانحدار فى الأخلاق والعوائد ، فوضى فى المعاملات ، تفكك فى الأسرة ، اختلال فى التوازن بين طبقات المجتمع ؛ السلطان كله للقوة الباطشة ، أو للشهوة الجامحة ؛ ولاسلطان للقانون ...

وتألبت كل عناصر الظلام ، فى جزيرة العرب ، ومن حول جزيرة العرب ، لتطفىء هذه الشعاعة الأولى من النور ... ولكن هذه الشعاعة لزمت مكانها (مكة) وثبتت فى قوة وإصرار عشر سنين كاملة ، أمام هذه الزوابع والأعاصير .. ثم أذن الله لها (بفضل الهجرة إلى المدينة فى سنة ٦٢٢ الميلادية) أن تشتد وتمتد ، وأن تنتشر وتستبحر، فأخذت تزحف بدورها على جيوش الظلام لتبددها ، فلم تمض عشر سنوات بعد الهجرة حتى غمرت بنورها جزيرة العرب كلها ..

ولم يفارق الدنيا صاحب هذا النور صلوات الله عليه (فى أول السنة الحادية عشرة من الهجرة) إلا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقاً إلى خارج جزيرة العرب ، ليبدد ماحولها من الظلمات ، وليكف بأس القوى الشريرة التى تآمرت عليه فى الدولتين العتيقتين : دولتى الفرس والروم . ذلك أنه فى السنة التاسعة من الهجرة قاد بنفسه

---

*مجلة (المجلة) وزارة الثقافة ، القاهرة ، العدد الرابع ، ابريل ١٩٥٧ ، ص ص ٤١ – ٤٥ .

جيش المسلمين إلى (تبوك) مسارعة إلى صدّ الحملة التى كان الروم قد تأهبوا لها فى الشام ؛ فكانت الهزيمة الأدبية التى لحقت بجيش الروم يومئذ ، حيث لم يجرؤ أن يتقدم لملاقاة جيش المسلمين هنالك ، كانت هذه الهزيمة الأدبية إرهاصاً قريباً لهزيمة الدولتين عسكرياً ، وسقوطهما نهائياً ، فى أول عهد خلفائه الراشدين ...

ثم تتابعت هزيمة الظلام ، وتدفق نور الإسلام على الأرض شرقاً وغرباً ، فكان مافتحه المسلمون فى قرن واحد (٦٣٢ -٧٣٢ م) أعظم وأضخم مما فتحته الدولة الرومانية فى سبعة قرون كاملة.

غمرت الموجة الأولى من الفتح الإسلامى بلاد العجم والعراق والشام ، ثم مصر وتونس ، ثم الجزائر ومراكش وصقلية وأسبانياً ؛ ثم تجاوزت جيوش المسلمين جبال البرانس ، وأوغلت فى فرنسا حتى اقتربت من باريس ... ولو شاء ربك لأسلمت أوربا كلها ، بل لو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ؛ ولكن قضت حكمته العليا ألاّ يزال الناس مختلفين ؛ « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين »... وهكذا توقفت الفتوح فى هذا الجانب من العالم منذ سنة ٧٣٢م وعادت الجيوش من فرنسا لتستقر فى أسبانيا ، وليؤسس المسلمون فيها مملكة عظيمة ظل حكمهم فيها قائماً ثمانية قرون ؛ لم يشهد التاريخ فترة مثلها حضارة وازدهاراً ؛ على أنهم إن كانوا اليوم قد فارقوها ملكاً وحكماً ، فإنهم لم يفارقوها أثراً ورسماً.

ولم تكد موجة الفتح تنحسر هذا الانحسار اليسير فى الجانب الغربى حتى بدأت موجة أقوى منها فى الجانب الشرقى ، امتدّ بها الفتح الإسلامى مشرّقاً إلى بلوخستان والهند والصين ، بل تجاوز القارة إلى الجزائر الأندونسية ؛ كما أنه انعطف مغرباً فدخل أوروبا من جنوبها الشرقى متجهاً نحو الغرب والشمال الغربى إلى النمسا وإلى قرب بحر البلطيق ...

هذه الفتوح كلها يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين بأن الأساس الأول والأعظم فيها لم يكن هو الحرب ؛ فهم يقولون بصريح العبارة : إن المعارك الإسلامية الكبيرة كانت نادرة جداً ، وإن أكثر ماتمّ من الفتح الإسلامى إنما كان بفضل التجارة ، والدعوة السلمية ، والإقناع الحكيم ، والقدوة الحسنة .

وفى الحق لو كان دخول هذه الأمم فى حظيرة الإسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منها منذ دخلت السيوف فى أغمادها ، ومنذ غفل المسلمون عن أسلحتهم وأمتعتهم ، فانعكست آية القوة المادية ، وأصبحت فى يد غيرهم ؛ ولكن الإسلام ، كما قال هرقل (عاهل الروم فى عصر النبوة) متى خالطت بشاشته القلوب لايرتد أحد عنه

ساخطاً له . أو كما قال بعض المؤرخين (١) فى العصور الحديثة : إنه لاتعرف حادثة واحدة ارتد فيها مسلم عن دينه ردة حقيقية ؛ بعد أن دخل فى الإسلام دخولا حقيقياً ؛ بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى إلى الإسلام أكثر من أن تحصى ...

نقول : إن فى سرعة انتشار الإسلام هكذا فى عالم يبلغ خمس الكتلة البشرية على الأقل ، وبين أمم مختلفة فى ألسنتها وألوانها ونزعاتها وطبيعة أرضها ، وطبيعة جوها ، وأسلوب حياتها ... وإن ثباته واستقراره هذا على الرغم من كل عوامل التدمير التى سلطت ولاتزال تسلط عليه فى داخل أرضه وفى خارجها ... وإن فى قابليته لزيادة الانتشار على الدوام كلما رفعت الحواجز الصناعية من طريقه ... وإن فى سرعة تقبل النفوس له كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع ... إن فى ذلك كله لتفنيداً بليغاً لزعم من زعم أن الإسلام خلق للصحراء ، وللأمم التى لم تجاوز طور الطفولة البشرية ؛ إن فى ذلك كله لآية بينة على مبلغ ما فى طبيعة الإسلام من إشباع لحاجات العقول والقلوب ، ووفية لمطالب الأفراد والجماعات ، ومجاوبة للفطرة الإنسانية العميقة ، التى لاتختلف باختلاف الأقطار والعصور ، ولا باختلاف المظاهروأساليب الحياة ، بل إن فى ذلك كله لآية على أن الذى فطر الإنسان هو الذى شرع له هذا الدين ، وفصله على مقياس طبيعته ، وأن ذلك كان هو السر الأول فى بقائه وخلوده « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

ولقد اتسم الإسلام فى غضون تاريخه بسمتين أخريين ؛ كان لهما أكبر العون على استمراره واستقراره ، ظاهرتان من أهم مقومات الحضارة الحقيقية ، لم يسع المحققين من علماء أوربا إلا الاعتراف بهما ، والتنويه بشأنهما : ظاهرة داخلية ، بين معتنقيه ؛ وظاهرة خارجية ، تجاه المخالفين له .

فأما الظاهرة التى أسبغها على أتباعه فيما بينهم : فتلك هى ظاهرة الأخوة الروحية ، التى جعل منها ظاهرة اجتماعية ، تسمو على كل الفوارق العنصرية ، وتمحو كل الحواجز الإقليمية ، وإن اختلفت إدارتها ورياستها العليا . فلقد أتى على الإسلام حين من الدهر ، فى مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (العاشر والحادى عشر الميلاديين) كان يتولى الخلافة فيها ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : خليفة عباسى فى العراق ، وخليفة أموى فى الأندلس ، وخليفة فاطمى فى مصر ؛ ومع ذلك كان المسلم

---

(١) Porter : Discours Préliminaire sur la Religion des Mohamétans

يتنقل فى سفره من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فى امتداد يقطعه الراكب فى عشرة أشهر على الأقل ، لايجد حيثما حل إلا إخوة فى عقيدته ، إخوة فى عبادته ، إخوة فى شريعته ، نظراء فى أخلاقه وعوائده ؛ أو كما يقول المؤرخ الألمانى متز Mez فى كتابه (نهضة الإسلام Die Renaissance des Islams) كان المسلم يشعر أنه حيثما حل فهوفى قلب وطنه .

وأما الظاهرة الخارجية : فهى ظاهرة التسامح بإزاء الأديان الأخرى ، لا بإزاء اليهودية والنصرانية فحسب ، بل بإزاء المجوسية ، التى عاملها الإسلام معاملة الأديان السماوية ... ولم يقتصر الأمر فى هذا التسامح على أنه ترك أصحاب هذه الديانات المختلفة يتمتعون بحرية عقائدهم وعباداتهم ولغاتهم (١) ؛ بل إن الخلفاء خولوا لكل رئيس دينىّ أن يقضى فى شؤون طائفته الخاصة التى لاتصطدم ومصالح الدولة . أضف إلى هذا أن عدداً كبيراً منهم كان أداة فعالة فى جهاز موظفى الدولة ؛ حتى إن منصب وزارة الحربية أسند إلى المسيحيين مرتين ؛ أثناء القرن الثالث الهجرى .

ولقد حاول المؤرخ الألمانى كريمر Kremer فى كتابه (حضارة الشرق فى عهد الخلفاء : (Kulturg eschichte des Orients unter des Chalifen) أن يحلل طبيعة هذا التسامح الإسلامى ، ويتعرف أسبابه ، فنفى نفياً قاطعاً أن تكون له بواعث سياسية ، وأن يكون هدفه فى نظر أولى الأمر المسلمين هو تسكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لايثوروا على الحكم ... قال كريمر : كلا ؛ فإن هذه الفضيلة لم تكن خاصة بالخلفاء والرؤساء وحدهم ، بل كانت سارية فى الشعب عامة ؛ ثم إنها لم تقتصر على عصر المسلمين القدامى فحسب ، بل شملت سائر العصور ... وينتهى المؤرخ من تحليله إلى هذه النتيجة : وهى أن المسلم يفصل فصلاً تاماً بين العقيدة ، التى يحترم حريّتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد الكفاية والأمانة ، والتى لاتميز بين دين ودين فى سبيل التعاون (٢) .

ولن يفوتنا أن نعدّ من بين هؤلاء المؤرخين المنصفين الأستاذ الفرنسى (جوتييا Gautier) فقد خصص فى كتابه (أخلاق المسلمين وعوائدهم : Moeurs et Coustumes des Musulmans فقرات طويلة قارن فيها مقارنة رائعة بين هذا التسامح الدينى عند المسلمين بخاصّة والشرقيين بعامة ، وبين ماعند المسيحيين الغربيين

---

(١) يقول المؤرخ متز : إن الأقباط لم ينسوا لغتهم القبطية إلا فى القرن الثالث الهجرى .

(٢) نقول : أليست هذه وصية القرآن الكريم : « وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ، « لإكراه فى الدين » ؟.

من عصبية عنيفة توارثوها خلفاً عن سلف . وعلى سبيل التمثيل لهذه الحمية الجاهلية يشير المؤلف إلى ما حدث فى جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى مونفور) الذى توجه بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين ، ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة (لانج دوك) لاستئصال الديانة المجوسية منها ، فأغرقوا الإقليم كله فى أنهار من الدم والنار ، حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس ... ويستطرد المؤلف فيقول : إن هذا العنف لم يؤد إلى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الكنيسة ؛ فقد نبتت هذه الفرقة المارقة مرة أخرى فى (بوهيميا) فحوربت وهزمت . ثم نبتت مرة ثالثة فى شمال ألمانيا باسم (الإصلاح الدينى : La Reforme) . وقد حوربت فى هذه المرة أيضاً بأساليب أشد عنفاً ، ودامت المعارك من أجلها ثلاثين عاماً . ولكنها لم تفلح فى إخضاعها ... فلما استنفدت الحروب جهود الطرفين وأرادوا أن تضع الحرب أوزارها لم تطوّع لهم أنفسهم قبول فكرة التسامح الدينى فيما بينهم ، بل فضلوا أن تقسم المسيحية قسمين متناكرين ، ليس بينهما تعايش سلمى فى دولة واحدة ؛ بل لكل دولة دينها ، بحيث لايعيش فى كل أمة إلا مذهب واحد ..يقول المؤلف : فأين هذا مما نشاهده فى داخل بلاد الإسلام قديماً وحديثاً ، حيث يحتضن الإسلام دائماً بين جناحيه من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسي طوائف من غير المسلمين ، يهوداً ونصارى ومجوساً ؛ وطوائف من المسلمين المبتدعين ، شيعة وخوارج وإباضية ... ولم يفكر العرب ولا المسلمون يوماً ما ، حتى فى أشد أوقات حميتهم الدينية ، أن يطفئوا بالدم ديناً منافساً لدينهم ؛ بل لم يفكر الخليفة يوماً ما فى أن يضطهد مسيحياً يعقوبياً أو مجوسياً مانوياً ..إنه مهما تكن الأسباب والبواعث على هذا التسامح الدينى عند المسلمين ، فإنها فضيلة تستحق كل إعجاب وتقدير .. وإنه لمن الخطأ فى القياس أن نقارن بين هذه الفضيلة عندهم وبين ما نسميه نحن أحياناً بالتسامح الدينى عندنا ؛ فإن هذا التسامح المزعوم ليس له أدنى قيمة خلقية ، بل ليس له وجود حقيقى ؛ لأنه يقوم على أساس التحلل الدينى وعدم المبالاة بشؤون العقيدة ؛ فلكى نقبل وجود ديانة أخرى فى بلادنا يجب أن تكون ديانتنا قد ماتت من قبل فى نفوسنا . أما المسلم فانه يتسامح مع اعتزازه بدينه ، واستمساكه التام بعقيدته .

وكنّا بالأستاذ (جوتييه) حين أشاد بفضيلة التسامح الدينى عند المسلمين ، وجعلها قاعدة عامة عندهم ، توقع ما قد يجول بذهن القارئ من اعتراض على هذه القاعدة العامة بالأمثلة المشاهدة فى المستعمرات حيث إن المسلمين فى الجزائر وغيرها يمقتون المسيحيين جميعاً ، فرنسيين كانوا أم انجليز أم هولنديين أم غيرهم .

فتصدّى لدفع هذا الاعتراض قائلا : إنهم لايمقتون فينا مسيحيتنا ، وإنما يمقتون أوربيتنا ؛ فإن أوربا منذ قرن أو يزيد أصبحت خطراً يهدّد سلام الكرة الأرضية ؛ فالأوربى عندهم رمز للتدخل الذى يجرح كبرياءهم ، ويحطم استقلالهم ، ويفسد أسلوب معيشتهم . أما عقائدنا الدينية وآراؤنا الفلسفية ، المخالفة لعقائدهم وآرائهم ، فإن أمرها كان يهون عليهم لو بقيت محصورة فى دائرة الاختلاف النظرى .. ولقد صدق !

هذان هما العنصران الأساسيان فى بناء الحضارة عند كل أمة رشيدة تطمح إلى البقاء والخلود : عنصر الوحدة الروحية والوطن المشترك بين أبنائها على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم ، وعنصر التسامح والتعايش السلمى مع جيرانهم المخالفين لهم فى عقائدهم .

غير أن هذين العنصرين لابد لهما من عنصر ثالث يمازجهما ويكملهما ، ويجبر ماقد يعتريهما من نقص ؛ ذلك أن رحمة الأخوة كثيراً ماينفلت زمامها ، فتصل إلى حدّ التراخى والتهاون والإغضاء عن الإثم والفوضى والفساد الداخلى ؛ كما أن نزعة التسامح وحب السلام العالمى كثيراً مايختل ميزانها ، فتنحدر إلى مستوى الضعف والاستسلام أمام العدو الخارجى ..

لهذا وذاك جاء الإسلام منظماً لكلتى النزعتين ، محتفظاً بما فيهما من خير ونفع، نابذاً ما فيهما من شذوذ وانحراف ...

يتلخص هذا التنظيم الإسلامى فى أنه جهز أتباعه بجهازين : داخلى وخارجى ؛ وجعل كل واحد منهما يتألف من عنصرين : أدبىّ ومادىّ .

فأما فى الداخل فقد جهزهم معنوياً بجهاز الدعوة إلى الخير ، والتناهى عن المنكر، والتناصح والتواصى بالحق ؛ دعوة وتناصحاً لا يمتاز فيهما كبير عن صغير ، ولا يقل فيهما مأمور عن أمير .. ثم جهزهم مادياً بجهاز العقوبات والتأديبات التى يوجب توقيعها على كل من لم تنفعه الموعظة الحسنة ، بالغاً مابلغ قدره وخطره ، دون أن تأخذنا به رأفة فى دين الله .

وأما فى الخارج فقد زودّ أتباعه معنوياً بمبادئ العزة والحمية وإباء الضيم ؛ أشربها قلوبهم مع عقيدة التوحيد ، حتى « إذا قيل لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله » ثم جهزهم مادّياً بقانون الجهاد الذى جعله عليهم فريضة محكمة ، يدافعون به عن كيانه وكيانهم ، ويرهبون به عدوّ الله وعدوّهم .

وهكذا كان الإسلام فى لينه بعيداً عن الضعف ؛ كما كان فى حربه بعيداً عن العنف ، وبذلك تجافى عن طرفى التفريط والإفراط اللذين انتهى إليهما الأمر فى كثير من الديانات ؛ نعم لقد جاء الإسلام بريئاً من طابع الخور والاستكانة التى اتسمت بها بعض

الديانات الوعظية التبشيرية ، التى لاحول لها ولا قوة ، ولا سلطان لها على نظام المجتمع؛ كما جاء بريئاً من طابع الغرور والكبرياء والعتوّ ، الذى اصطبغت به بعض الديانات المحرّفة ، التى توحى إلى أتباعها أن من عداهم ليسوا من فصيلة البشر ، وأن دماء غيرهم وأموالهم ليست لها حرمة ولاقدسية .

هكذا جاء فى وقت واحدا مبرءاً من العناصر الخامدة الخائرة ، ومن العناصر الهادمة المدمرة ، مزودا بعناصر الصلاح والإصلاح ، وأسباب البقاء والإبقاء ، جامعاً بين القوة والنظام ، والرحمة والسلام .